المورد

مجلة تراثية نصف سنوية محكمة

تصدرها وزارة الثقافة والأعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ جمهورية العراق
المجلد الحادي والعشرون ـ العدد الاول ـ ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م

WWW.ATTAWEEL.COM

أسد الدين محمد

العمارة الاسلامية

عمارة التـــوحيد(*)

بحث : البروفيسور كريستيان نوربيرغ شولز(**)

ترجمة : المهندس المعماري محمود حمندي

ص . ب (٦٠٠٥) ـ المنصور ـ بغداد

يجتاز التعليم المعماري في حضارتنا المعاصرة حالة تأزم . ان في حوزتنا اليوم معرفة في اغلب الحقول تفوق ما كانت لدينا في أي وقت مضى ، ولدينا وسائل تقنية تخدمنا بشكل أفضل مما كان سابقاً ، ولكن البيئة المشيّدة في أغلب بقاع العالم ما زالت تتهرى بسبب الإنشاء العشوائي . وعلى هذا فقد نتحدث عن أزمة بيئية عامة ، وبالتالي فهي أزمة التعليم المعماري . ولما كنت معماراً ومدرساً فقد أتيح لي أن أفكر ملياً باسباب هذه الحال .

ان استنتاجي بسيط وهو اننا قد نسينا لغة العمارة . فلقد نسينا أولاً أن نمارس العمارة كتعبير مفهم بالمعنى عن حياة البشر في مكان معيّن ، كما قد نسينا ثانياً كيفية استعمال لغة العمارة كوسيلة لتلبية متطلبات الانسان في المعنى والانتماء .

بكلمة (اللغة) أقصد ما يُبقي وينقل أنماط الانسان في وجوده في الدنيا . وان استعادة لغة العمارة عافيتها لهي هدف رئيسي للتعليم المعماري وقاعدته . أما غرض هذا البحث فهو تبيان ما يعني ذلك مستعينين بالعمارة الاسلامية للتوضيح .

انا لا أدعي القدرة على شرح العمارة الاسلامية ، بل أن رغبتي هي مجرد توضيح طريقة قد تساعدنا على تحقيق العودة الى العمارة المبتغاة . لاؤكد : قبل أن نتمكن من تدريس العمارة ، علينا أن نعرف ما هي العمارة . وفي صدد بحثنا هذا فان ذلك يعني السؤال الآتي : ما هي العمارة الاسلامية ؟ وفي هذا الاستفهام تمهيد لسؤال آخر أخير هو : هل يمكن خلق عمارة اسلامية اليوم ، وهل يجدينا ذلك نفعاً ؟

تمارس العمارة الاسلامية كواقع ايجابي فور زيارتنا بيئة اسلامية : من افغانستان والى البلاد العربية . ومن مصر الى الأندلس ترى العمارة الاسلامية موجودة كحضور فوري معترف به . انها وجود كشيء يخبرنا باننا لسنا في أوروبا الاغريقية أو الرومانية أو المسيحية . انها دنيا اخرى تتجلى ، دنيا تجعلنا نشعر بالتغاير وتتطلب منا ادراكاً حسياً مختلفاً . اضافة لذلك فاننا نعرفها عندما نكون في مدينة أوروبية أكثر مما لو كنا في مدينة هندية أو صينية ، واننا نعرفها قبل أن نواجه أي كائن بشري أو نرى لافتة مكتوبة . مع ذلك فإن كل هذه العوالم المختلفة تكون بالاساس متشابهة : إذ هي مؤلفة من مدينات وشوارع ومباني وأشياء وأناس .

فيم إذن يكمن الاختلاف ؟ وكيف نعرف أين نحن ؟ اننا نعرف أين نكون لان حياة البشر تجري في أمكنة تحددها العناصر الطبيعية والعمارات التي تتضمن سمة مميّزة . من الواضح ان مثل هذه « السمات » تكون عامة في كثير أو قليل . وعندما أقول اننا نعرف ذلك العالم عندما نكون في مجتمع اوروبي ، اضيف فاقول اننا نعرف أيضاً باننا ، مثلاً ، في مدينة انكليزية وليس في اخرى المانية . نعم يمكننا أن نميّز بين عالم توساني وآخر صقلّي ، ولكن ذلك يتطلب مستوىً معيناً من المعرفة من جانب الزائر .

شارع في مدينة اسلامية جامع الحيدرخانة ـ شارع الرشيد ـ بغداد

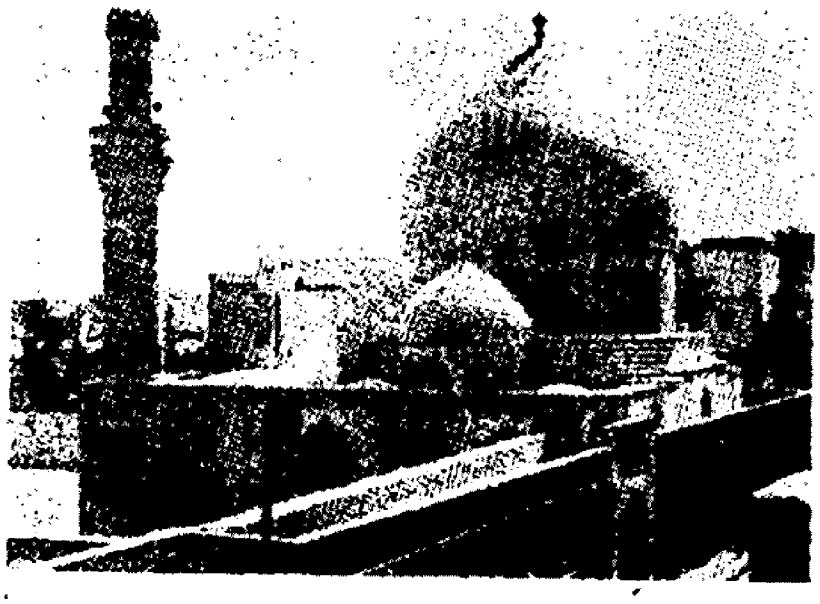

(*) بحث ضمن محور « التوجه نحو التعليم المعماري » من ندوة « التعليم المعماري في العالم الاسلامي » التي عقدتها جائزة الاغا خان للعمارة في قصر الحمراء بغرناطة / اسبانيا في نيسان ١٩٨٦ .

(**) المهندس المعماري كريستيان نوربيرغ شولز استاذ في النظريات المعمارية والتاريخ المعماري ورئيس مدرسة اوسلو للعمارة في النرويج .

ان الامكنة التي نحفل بها في رحلاتنا هي بالأساس أمكنة عامة وليست خاصة ، وقد تكون أحيزة حضرية بمثل ما تكون دواخل أبنية عامة . وعلى هذا فإن الفارق بين البيئات ينبع من اختلافات الممتلكات المكانية ، والتي يمكن درجها ضمن الاصناف الكثيرة من الانماط الكتلية والانواع المختلفة من الأسوار ، سندرك على التو « سوق » مدينة اسلامية كنمط كتلوي مميّز ، ويحدث نفس الشيء عندما ندخل مسجداً مشهوراً مثل جامع قرطبة . مع ذلك فإن تشخيص المدينة الاسلامية لا يتطلب بالضرورة زيارة أمكنة معيّنة ، لاننا نحس بالوجود الاسلامي أينما حللنا بسبب المعالجات السماتية لأسوار الفضاءات بمثل ما نشهده في المدن الاوروبية لنفس الأسباب . في البداية تتجلى العمارة الاسلامية في الحيطان التي يكون الحس الاسلامي بالبقاء الدنيوي أمراً فيها متواصلاً ومشهوداً . من المؤكد ان ليست كل الجدران في كل المدن الاسلامية مشيّدة بنفس الاسلوب ، ولكن المميزات الأساسية والأفكار تكون ذات وجود كلّي omnipresent برغم ترددها المختلفة . من نفس تلك الاهمية فان الصفات التي تميّز المدن الاوروبية تكون ، كقاعدة عامة ، غير ذات وجود .

ما هي إذن هذه المميزات الاساسية ؟

الحائط الاسلامي يمكن على العموم أن يتسم بصفة « الجلد » المختلع بنيوياً dematerialised skin الذي يُغطّى في كثير أو قليل بتزيينات خطيّة معقدة . أما العناصر التشكيلية للأجسام البشرية التي تميّز الجدار الاوروبي ذا الجذور الكلاسيكية فليس لها وجود في الأشكال الاسلامية . اضافة لذلك فان الحائط الاسلامي مغاير لنظام الشفاف للعمارة القوطية . وبالتأكيد فان هذا الاخير يبدو نوعاً من شبكة من الاعمدة النحيلة . وبينما تكون الخطوط الاسلامية مجردة ومن غير وجود جسدي تبرز الاضلاع القوطية على شكل صفوف من التقويات التي تبدو وكأنها هيكل انشائي أكثر من كونها زينة .

على هذا فإن العلاقة الجلية بالأرض تكون في الجدار الاسلامي أضعف مما هي في الجدار الاوروبي . ان الحائط الاسلامي لا ينتصب ولا يشمخ بنفس الطريقة الانشائية المقررة للمبنى بل يبدو معبراً عن نوع من الكينونة في الفضاء أكثر عمومية . وهذا يتماشى مع تنظيمه الهندسي الخاص ، بينما تكون التخوم الاخرى للفضاء الاسلامي ذات سمات مناظرة .

على هذا تكون الأرضيات سطوحاً ممتدة شبيهة بالسجاد ، وتكون أرضيات الجوامع في الواقع مغطاة بفرش ذات نقوش هندسية . أما السقوف فتنتم في نهاية المطاف عن سمات الحدود الاسلامية بطرائق واضحة للغاية . بهذا الاسلوب يتلاشى المستوى السطحي تماماً ليكون شبكة مضيئة وشفافة من الاشكال الرقيقة من غير أن تفقد استمراريتها العامة .

مع ذلك هنالك وجود لمفارقة واضحة بين العلو والسفالة . فالسقف والجزء الاعلى من الجدار يكونان في الغالب ابيضين موشيين بزخرفة جد كثيفة ، بينما يكتسب القسم الاسفل من الجدار والأرضية وجوداً أكثر ثباتاً بسبب استعمال الكاشي المزجج ذي الالوان المتعددة . وسمة اختلافية اخرى عن الجدار الاوروبي التقليدي هي خلوه من التمثيل الصوري . وحين تتجلى بعض « الأجساد » بوضوح تكون على الدوام مبتلعة بالتزيينات المتشابكة لتكون جزءاً متمماً للكلية الشاملة . وكبديل عن الصورة الاوروبية ، تستعمل عناصر خطية تتضمن مقتبسات من القرآن الكريم . وبسبب المميزات الزخرفية للكتابة الكوفية ، فانها تصبح أيضاً جزءاً من هذه الكلية الشاملة .

على العموم يمكن وصف التخوم المكانية للعمارة الاسلامية على انها سطوح غير اساسية مستمرة وذات بُنية زخرفية غير محددة يتجلى فيها صدى باهت من دنيا الاشياء ثم يتلاشى . هنالك أيضاً نورانية شاملة الوجود تعزز الشعور العام بالتكامل والوحدانية . وعلى هذا فإن الظاهرة الاساسية للعمارة الاسلامية هي انها تتضمن « سمة ـ character » أكثر من احتوائها مجموعة من العناصر الشكلية المميزة .

بيد أن هذا لا يعني ان العمارة الاسلامية تهمل الطرز البنائية والافكار الشكلية . ليس من هندسة معمارية تجري من غير ذلك ما دامت هنالك سمة تكتسب وجودها على الدوام بصفة « شيء ما » . ان دراسة لتاريخ العمارة تبين أن طرز البناء في أية حضارة تستند على أنماط كتلية عامة مثل « المبنى المستدير ـ rotunda » و « الباسيليقا ـ basili » (الذي هو مبنى مستطيل ينتهي بجزء نصف دائري وأصله

قصر المطرة في تونس

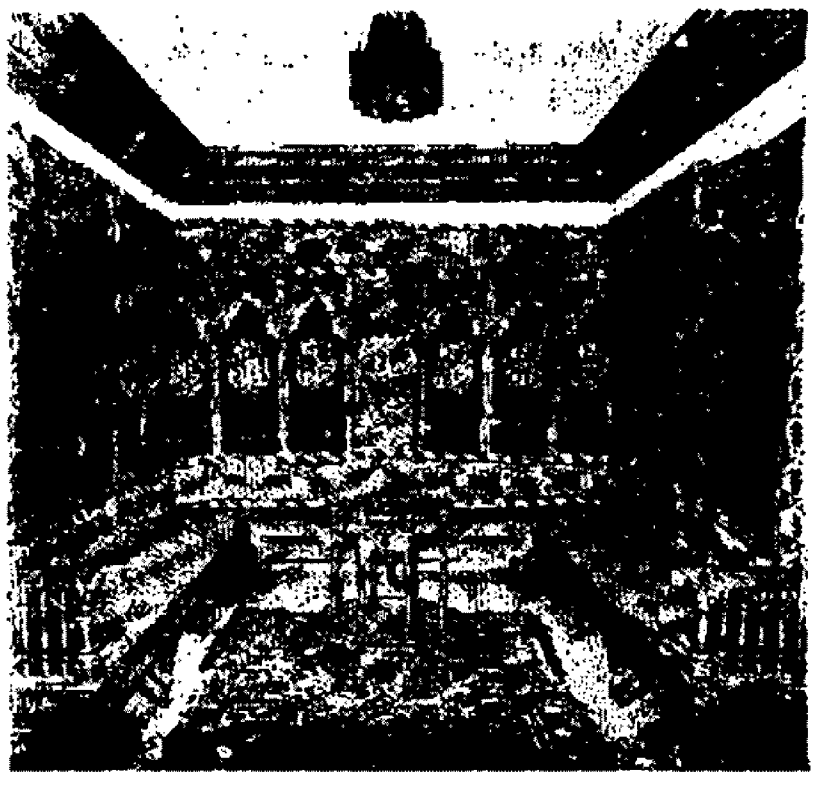

روماني / المترجم) وفضاء « المرتكز السقفي ـ hypostyle » (الذي هو سقف مرتكز على صفوف من الاعمدة / المترجم) وهي ثلاثة أشكال فضائية تتسع بامتداد خزياني عام . لانها تنبع من انشاءات اساسية للوجود الفضائي : المركز (الهدف) والطريق والميدان - Centre) (goal, way, and domain . المسجد ، مثلاً ، هو بالاساس مرتكز سقفي تتشيد فيه في بعض الأحيان قبّة لتنمّ عن مركز معيّن أو ترمز اليه . غير أن الانماط الكتلية العامة في العمارة الاسلامية تفشر على غير ذلك ببلاغة فائقة تم تعثل وفقه . وكما هي الحال في الحوائط الزخرفية ـ فإن المدن والابنية تتضمن عناصر هي بالاحرى متوحدة أكثر من كونها منفصلة . وغالباً ما تكون اضافات امتدادية غير مقررة مسبقاً . وعلى هذا يكون مسجد المرتكز السقفي من الناحية المبدئية شكلاً « مفتوحاً » يتيح اضافة أو حذف عناصر فضائية من غير تشويه لمضمون معناه . (ليقارن هذا بالنسبة الى مقولة ألبرتي المشهورة بعدم امكانية اضافة أو حذف أي شيء من التركيبة الكلاسيكية إلا وتميل النتيجة نحو الاسوأ) . ان العناصر الرمزية في العمارة الاسلامية مثل البرج والقبّة والفناء الداخلي هي نقاط توجيه ـ orientation ضمن الجمع الشامل ـ Comprehensive totality بدلاً من كونها أهدافاً رمزية نهائية . انها تبدو خارج المجموعة ولكنها منحت نوعاً من رهبنة ـ prion ، أي انها لا تؤلف ، بل هي عناصر يُخشع لها . بهذا ندرك الفارق الاساسي بين العمارة الاسلامية والعمارة الأوروبية . في الاوروبية يتشكل « المكان the place » بالأبنية أو بـ « المؤسسات » (باستعمال تعبير لويس كان ـ Louis Kahn في أن المكان في العمارة الاوروبية يحدد من الداخل ـ from within) بينما يحدد المكان في العمارة الاسلامية من الخارج ـ from without ليكتسب واقعاً ازلياً غير ذي نهاية .

في البيئات التي هي من صنع الانسان ، لا بد حتى للواقع اللانهائي من أن يكون له حضور بصفته مجموعة من الامكنة المختلفة . من هذا المفهوم تكون المدينة الاسلامية متضمنة تغايرات مكانية ، اضافة الى الاختلافات الشكلية . المغايرة الأولى التي تدرك تلقائياً هي ملاحظتنا الفارق بين الفضاء الحضري للحياة اليومية ودواخل الجوامع والأبنية الرئيسية الاخرى . فإذ يبدو الفضاء الحضري عموماً على شكل متاهات من الدروب والأزقة « لا شكلية ـ informal » ومتنوعة ، ويغلب أن تكون ذات مظاهر متقوضة ، ورثّة ، فان الدواخل تنمّ عن درجة عالية من النظام الشكلي ـ formal والارتباطات المفصلية والتي تكون على العموم بحالة جيدة من الصيانة المعتنى بها . من الواضح إذن أن الاسلام يعترف ان الوحدة المنظمة والتي هي السمة الاساسية لعمارته لا تنطبق مباشرة على الوقائع الدنيوية الموقتة للانسان والتي هي عالم الحياة اليومية ، كنتيجة لذلك فان العمارة الاسلامية تكون انطوائية ـ introverted ويمسي معناها واضحاً وخاصة في الحدائق المسوّرة والأفنية والدواخل . أما ما يعتبر حقيقة أزلية من الخارج فإن رؤيته تتجلى من الداخل .

ومع ان العمارة الاسلامية تنأى عن الاشكال الرمزية فانها ، مثل أي نمط معماري آخر ، تتطلب عناصر معترفاً بها . يمكن ذكر « قوس حدوة الحصان horse-shoe arch » على أنه أحد الافكار النمطية للعمارة الاسلامية . على خلاف القوس نصف الدائري للتحدارات الغربية western traditions فان مركز القوس الحدوي أعلى من قدامته (foot) مما يتيح له أن يبدو مرتفعاً ومتسعاً . بهذا يفقد قوس حدوة الحصان صفته الانشائية ليمسي شكلاً تزيينياً جامعاً بين الإسناد والخفّة الاشعاعية . وعلى العموم فان القوس الحدوي ينم عن كيفية أن تصبح الفكرة « علامة » مميّزة ممثلة نظاماً معمارياً شاملاً . وقد أمكن ذلك بتوحيده المميزات الاساسية للنظام بشكل مبسّط . أما الاكثر تعقيداً وخصوصية ، ولكن باهمية مساوية فهي المقرنصات التي تستعمل في العمارة الاسلامية لتولي مهمة التحول من السطوح المستوية الى مثيلاتها المقوسة . ان المقرنصات تتعلق بالأساس بمتدليات ـ pendentives واسقنشيات ـ squinches العمارة الأوروبية (الاسقنشيات أقواس تبنى عبر زوايا الغرف لتدعيم ما فوقها / المترجم) ولكنها توضح سطوح الانتقال بطرائق أساسية مختلفة . واذ تتضمن المقرنصات « خلايا » من المشكايات (جمع مشكاة) أو الكوات ـ niches المعقدة الى حد ما فإنها تتلافى كل نوع من التشكيلية ـ plasticity وتجعل المميزات الزخرفية والتنويرية للتخوم الاسلامية تتسمخ صعوداً بطريقة أسرة جداً .

ان الضوء الذي يُرى بالمقرنصات مفعماً بالصور ومجسداً بالهندسة يتمحور بالمحراب الذي هو مشكاة كبيرة تعبر في كل جامع عن القبلة أو الاتجاه نحو مكة المكرمة . ومع ان المحراب فارغ وخالٍ من أية

بركة الرياحين في قصر الحمراء بغرناطة / اسبانيا

محراب في مسجد

تماثيل صورية ، وبالتالي لا يمثل غاية رمزية . فانه مكان ذو أهمية جوهرية . وعلى هذا فان من الغالب تزيينه بزخرفة خاصة متقنة . ولما كان المحراب خالياً ولكنه في ذات الوقت ثري ، فانه يعبّر عن مضمون العمارة الاسلامية بالذات .

هنالك في الضرائح الاسلامية معاني رئيسية تتجلى بطرائق أساسية . يتكون الضريح عادة من مكعب تعلوه قبة . وما دام القبر يمثل واقعاً يتعدى الحياة اليومية للانسان ، فإن هذه التشكيلة توفر بوضوح مفتاحاً للمفهوم الاسلامي عن الدنيا . في التركيبة الكتلية لقبة الصخرة في القدس تكون العلاقة بقيام قبّة فوق أساس هيكلي مثمن . ولكن دراسة مستفيضة للهندسة الكامنة في الخطة تبين انها تمثل تطويراً معقداً لفكرة المكعب المقبب . حين شيدت قبّة الصخرة بين الاعوام ٦٨٨ و ٦٩٢ م لم يكن بمقدور الحجيج بلوغ مكة مما جعل القدس مركزاً موقتاً للعالم الاسلامي .

وعلى هذا يجب فهم المبنى على اساس انه تعبير عن الوظيفة أكثر من كونه مجرد صدىً للانماط البيزنطية ، كما يوحى عنه غالباً في أدبيات هذا الموضوع .

فكرة المكعب تظهر أيضاً في الكعبة بمكة المكرمة ، أن كلمة الكعبة بالذات تعني المكعب . ولما كان شكلها كذلك فإنها تنم عن الاتجاهات الرئيسية للفضاء : الا وهي النقطتان الاساسيتان (الكارديناليتان) والسمت العلوي ـ Zenith والنظير السفلي ـ nadir . هنا يتكامل المكعب مع القبّة السمائية ذاتها بدلاً من إقامة رمز بنائي . بهذا يتجلى وجود الدائرة واضحاً في الافق الارضي المحيط . بتغطية الكعبة بقماش أسود هو الكسوة التي تبدل كل عام ، يتحول الشكل التجريدي الى جسد حي يرتدي قماشاً يحمي سر ملقوسه القدسية .

لا بد من ذكر العنصر المقلمي الاخير للبيئة الاسلامية الا وهو المنارة . فبينما تمتد الابنية الاسلامية افقياً ، فان المنارة لا تعدو أن تكون محوراً عمودياً . انها بحد ذاتها نوع من « مركز » أيضاً . ولكنها بدلاً من أن تكون غاية مثل « قبة الصخرة » و « الكعبة » فإنها تؤدي مهمة « التذكير » بالفردوس الاعلى . على هذا فان موقع المنارة بالنسبة الى المنشآت المجاورة يكون طليقاً الى حد ما بعكس برج الكنيسة الغوطية الذي لا ينتفض في الفضاء بل يظهر ببساطة كوجود يُعبّر عن حلقة رهبانية بين الارض والسماء .

لقد كشف وصف العناصر والصفات الشكلية الاساسية للعمارة الاسلامية عن مفهوم انشائي للبيئة المنشأة موحدٍ . فالاحيزة والمباني تتسم ، حيثما كانت ، بمائديتها الى نفس العالم الشامل من خلال زخرفية سطحية لا نهائية . ومع أنها لا تظهر في كل المجالات فان هذه الزخرفية كلية الوجود بشكل فاعل . كما أن الانواع المختلفة للاحيزة المنكفئة على ذاتها ـ introverted خاضعة الى شبكة فضائية مستمرة . في الجامع يكون النمط المكاني موجهاً نحو مكة المكرمة التي تتراكز من حولها كل البيئة الاسلامية . اننا لا نجد في المركز صورة معينة ، ولكن تصوراً مركزياً لذلك النظام العام يكون موحى به في كل مكان من الدنيا .

ما هي العمارة الاسلامية ؟ والسؤال في هذا الصدد يتضمن « الكيفية » و « السبب » . لقد كنا لحد الآن مهتمين بالكيفية . ولقد آن الاوان لنسأل عن سبب صيرورة العمارة الاسلامية بوضعها الراهن .

كل المسلمين في مشارق الارض ومغاربها يستجيبون الى مراسيم دينهم خمس مرات باليوم معبّرين بذلك عن طاعتهم لمفهوم مشترك عن الدنيا . كلمة الاسلام بالذات تعني في الواقع « التسليم » ، وتبعاً لذلك فان المسجد يكون مكاناً لـ « السجود » أو « الخضوع » . تتضمن المعتقدات الاسلامية ان هنالك كينونة واحدة ، وان كل ما موجود يشاطر بهذه الكينونة الفريدة . ليست هنالك ألوهية إلا لله (لا إله إلا الله) . وعلى هذا يفهم الكون على أنه ايحاء ذاتي بالإله ، وقد ذكر النبي (ﷺ) عن الباري عز وجل انه كنز كامن معترف به خالقاً للكون . في ذات الوقت فان الله يسمو فوق الكون . ومع أن كل الاشياء تشاطر في الكينونة الإلهية ، فان لها طبيعة الزوال . ولما كانت موقتة وعابرة فإن من الخطا أساساً اعطاءها أهمية كبيرة . من هنا يجد اللانظام والتهري المتكرر للمشهد الحضري الاسلامي طريقه . ان وحدة التكوين ، بالمفهوم الاجتماعي ، تعني أن الكل متساوون بصفتهم مشاطرين في الامة أو مجتمع المؤمنين . وعلى هذا ندرك سبب أن المفهوم الاسلامي لـ « الشكل » لا يعني الإطار ـ outline أو البنية ـ figure بل انه طابع الوحدة الاساسية . وحين تظهر أشكال فردية في بعض الاحيان ، فانها تعامل على أساس انها طرز بدئية ـ archetypes بدلاً من كونها أشياء قائمة بذاتها . من المهم التاكيد على أن الوحدانية الاسلامية ليست نتيجة تجميع وتوليف ولكنها منح القدسية في كل مكان وفي كل الاوقات . وعلى هذا فان الاسلام يعتبر نفسه الدين الاساسي الذي يعود الى

ابراهيم ـ وبكلمة اخرى الى البداية .

ان وحدانية تضم كل الصفات لا يمكن التعبير عنها إلا كنمط شامل أو زخرف ، أي كنسيج من الافقيات والرأسيات . إن السجاد في حقيقته ، هو التعبير الامثل للفن الاسلامي ، وهو الشيء الوهمي الذي يتضمن اتجاهات الارض والسماء . ولكن حين تظهر أشكال عفوية ، فانها تخضع للنمط العام .

في الدنيا المعنية تتجلى وحدة الواقع بالنور الذي هو كينونة تشع في كل مكان ولكنها في ذات الوقت تكون غير مرئية . وعلى هذا ذكر في القرآن الكريم « الله نور السموات والارض » . وبناء عليه يفهم النور على أنه حضور روحي يمنح وجوده لكل شيء على وجه البسيطة . كتب الفيلسوف الاسباني المسلم ابن مسرّه « من غير اشعة الشمس الساقطة على ذرات الغبار الصغيرة السابحة في الهواء لن يكون بالمستطاع رؤيتها ، ومن غير ذرات الغبار لا تكون أشعة الشمس ذاتها بادية للعيان » . ان هذه الاستعارة تدل ضمناً على أن من غير حضور للروح ، لا تكون للعالم أية واقعية .

ما دام الضوء ينتشر بخطوط مستقيمة ، فإن بالإمكان تصوره بنمط يماثل نجمة هندسية من الأشعة المتناسجة . وعلى هذا فان حلية من النجوم المتداخلة والمنبعثة من بعضها هي التمثيل الأوضح للوجود الإلهي والوحدة في ذات الوقت وما دام هذا النمط ممتداً الى ما لا نهاية له وبالتالي فهو هي سكون ، فانه أيضاً يتضمن ايقاعات تمنح العالم الذي يحتويها حركة دنيوية زمانية .

حين يقابل الضوء مواداً عضوية بالتعاقب مع مواد أخرى غير عضوية فسينجم عن ذلك « شكلان » : هياكل بلورية الشكل مثل المقرنصات ، وانماط من الزهور مستمرة مثل الرفش العربي ـ arabesque . في كلتا الحالتين يكون « الشكل » هندسياً . أما نقطة الافتراق فهي الدائرة التي هي شكل كامل ليست له بداية أو نهاية . ولكن حين تقسم الدائرة الى اربعة أجزاء أو خمسة أو ستة أو ثمانية فستنشأ انماط يمكن مدها الى ما لا نهاية . وما دام أول طقس في الاسلام هو التميز بالحكمة تجاه الوحدة الإلهية ، ولما كانت هذه الوحدة ظاهرة على شكل نمط هندسي من النور المرئي ، فان المعمار ـ architect هو الذي يهندس . ان وحدانية الإلوهية موضحة بكلمات قرآنية . وعلى هذا تكون الزخرفة الاسلامية متضمنة عناصر الخط المذكورة آنفاً . بهذا تظهر الكلمة ضمن النمط الشامل لتجعله شكلاً ناطقاً .

ان الكتابة العربية أيضاً نوع من نسيج من الافقيات والعموديات ، وعليه يكون من السهل دمجها بالنمط العام . وكما ذكرت آنفاً فان الكتابة العربية تعوض عن الافكار الصنمية المسيحية . وما دام الخط العربي قد منح شكلاً صورياً ، فقد اعتبر اسمى الفنون شاناً .

لقد تيقنت ان الزخرفة الاسلامية لا بد أن تقترن باشكال كتلية معينة كي تكتسب وجودها الحقيقي . من بين تلك التكوينات تحظى القبة والمكعب باهمية اساسية . على هذا تمثل القبة الدائرية السماء المنتظمة ، بينما يكون المكعب الرباعي تصوراً عن ملكوت الارض في الاختلافات والصراعات ، من خلال التزخرف تتوحد القبة والمكعب ، ولكن تغيرات نمطية ولونية معينة تعمل في ذات الوقت على الحفاظ على هوية الاثنين . من المهم ملاحظة ان العلاقة بين السماء والارض في العمارة الاسلامية تشرع دائماً من الاعلى ، على خلاف العمارة الاوروبية الى تكون فيها سمات الاستقرار والنهوض التالي هي السائدة .

غير ان تفسيرات العمارة الاسلامية لا تُستنفد بتوضيح أسسها الدينية . فما دام الدين الاسلامي قد نشا في بيئة طبيعية ذات نوعية خاصة فان من المحتم أن يكون ذا علاقة بمميزات تلك البيئة . وعلى هذا فقد اعتبر الاسلام جواباً لمسالة جعل الإقامة البشرية في الصحراء ممكنة . من الحقائق المهمة المؤكدة هي أن الاسلام قد ولد في ارض شبه صحراوية وقد أصبح منتشراً في مناطق ذات سمات مشابهة . ان استيطان الصحراء يضع الانسان وجهاً لوجه مع أشق ما يكون من الملمات ، بالمفهومين البنيوي والنفسي معاً . ففي الصحراء تنعدم النقاط الثابتة التي يمكن الاستدلال اليها ، وانها تكون رتيبة وقاحلة وعديمة الحدود . تبعاً لذلك تعلق المصريون القدامى بالموت ، حتى أن كلمة الصحراء ـ desert اللاتينية مشتقة من كلمة ـ deserere التي تعني الاستسلام . وبما أن الصحراء لا توفر أي نوع من « الحماية » ، فانها تتنافى كلياً مع « المكان » . أما وجود الواحات فلا يغير من هذه الحقيقة شيئاً لان الواحة من الناحية النفسية تبقى حلماً ، أو فردوساً ينتسب الى عالم آخر . ان وصفاً ظواهرياً للصحراء يجسد هذه الملاحظات العامة ، كما ينم أيضاً عن ايحاءات عن كيفية جعل المأوى في هذا النوع من البيئة ممكناً .

في الصحراء تتضاءل تعقيدات عالم حياتنا اليومية الى قلة من الظواهر البسيطة : الامتداد اللانهائي للاشكال الموحدة للارض القاحلة ، والقبة الهائلة للسماء الصافية الحاضنة ، والشمس المحرقة التي تبعث باشعة تكاد أن تكون من غير ظل ، والهواء الحار الجاف الذي يجعلنا نتنفس بيئة مختلفة . وعلى العموم فان الصحراء تبدو وكانها تصنع ظاهرة نظامية مطلقة وسرمدية . غير أن هذا النظام يبقى بعيداً عنا لانه بالاحرى مسيّر من السماء لا من الارض . وعلى هذا فان مسيرة الشمس ترسم معدلاً مناخياً يكاد أن يكون دقيقاً وتقسم الفضاء الى شرق وغرب ، والى منتصف الليل ومنتصف النهار ، أي انها ميادين نوعية تستعمل في الجنوب عادة كدلائل لنقاط رئيسة . أما مغيب الشمس وبزوغها فيربطان النهار والليل من غير تاثيرات ضوئية انتقالية ، ويخلقان إيقاعاً زمانياً بسيطاً . قلما يكون تبدل الفصول محسوساً وان البعد الزمني على العموم يسند الاحساس بالنظام الازلي .

ان الارض في الصحراء ، على عكس السماء ، تتميز بتلبد فراغي ولا توفر للانسان موطىء قدم لتواجد وافي . انها لا تتضمن أية أمكنة

فردية بل تكوّن أرضية محايدة مستمرة . ولما لم تكن هنالك حدود ، لا تظهر الاشياء ، ولا تسود إلا العدمية . وعلى هذا فان الانسان في الصحراء لا يواجه القوى المتعددة للطبيعة . ولكنه يمارس أعم خصائصها . وهذا هو الوضع الوجودي وراء المثل العربي : « كلما تعمقت في ولوج الصحراء ازددت قرباً من الله » . وفي الحقيقة فان « التوحيد » الذي هو الايمان بوجود إله واحد كان قد انبعث من الامصار الصحراوية في الشرق الاوسط . لقد ارتبطت الديانتان اليهودية والمسيحية بالصحراء . أما في الدين الاسلامي المرتبط بالصحراء أيضاً فقد أوجد للتوحيد أمتن تعبير . ان مفهوم الإله الواحد بالنسبة للمسلم هو الايمان الفريد . واذ يؤمن المسلم بوحدانية الإله فانه يعزز وحدة العالم الذي له « بؤرة نبوغ » الصحراء بصفتها مقتداه الطبيعي . أما بالنسبة الى قطنة الصحراء فان « بؤرة النبوغ » تمسي ظواهر الكمالية المطلقة .

ان الصحراء وجودياً هي في حالة خاصة جداً مما يتطلب أن يعرف تكوينها بهذا الشكل كي يكون السكن فيها ممكناً . لقد اقتضى الاسلام أن يكون البدوي صديقاً للصحراء ، والصحراء هي التي تقرر نزعته الأساسية تجاه العالم : إلا وهي التوحيد الذي هو الوعي بوحدانية الإلوهية . وعلى هذا لم تعد الصحراء مفهومة على أنها الموت بل اصبحت بالاسلام أساساً للحياة .

ان هذا لا يعني بالطبع ان البدوي يستوطن الصحراء الخالية لان الاستيطان يعني الاحتياج الى مساحة منحبسة أو فضاءاً محدداً ضمن البيئة اللامتناهية . وعليه فان حبس الفضاء هو العمل الاصيل لعمارة الصحراء . أما العمل التالي فهو هيكلة هذا الفضاء وفق البيئة الصحراوية المعلومة أو بكلمة اخرى وفق نظام سماء وأرض . وكما اشير في السابق فإن السماء توفر الشكل المجرد بينما تهيىء الأرض الاشياء والعناصر المادية والتي تؤدي الى منح النظام الكوني حضوراً وجودياً . وعلى هذا فان الجنوع النحيلة للاشجار البازغة من الامتداد الفسيح للأراضي في الواحات تبدو ممزقة للنظام العام للافقيات والعموديات المكونة لظاهرة الفضاء الاسلامي . كان للمسجد الاول في المدينة جذوع نخيل تسند السقف ، وان لدواخل جامع أمية أثر لاخاديد نخلية ما زال محسوساً حتى الزمن الحاضر . ضمن النظام التجريدي للفضاء الصحراوي . لا يتوفر للاشياء التشكيلية وجود حقيقي ، كما ينعدم التلاعب الكلاسيكي للضوء والظل ، وتتضاءل كل الامور لتمسي سطوحاً وخطوطاً باهتة .

ان الاسلام بحد ذاته والعمارة الاسلامية أيضاً تنتسبان سوية كاستجابة واحدة لقضية جعل البادية مكاناً للتوطن بكل معنى المصطلح . فمن خلال الاسلام تكتسب حياة البدويين في الترحال بعداً جديداً . فنمطها التكراري الأبدي للحياة يصبح جزءاً من الواقع الروحي ، وهي حقيقة تتمثل دينياً بالحج الى مكة المكرمة . غير أن هذا لا يدل ضمناً على أن الاسلام يتضاءل الى نتيجة من القدر البيئي . فإذ يكون المرء صديقاً للبيئة وفق المفهوم المذكور اعلاه ، فإنه سيفهم الصدق ، وهذا الصدق في الاسلام يسمو على المكانية التي استلهم منها . اضافة الى ذلك فان الصدق الذي تلهمه الصحراء ينم أيضاً عن صفات اساسية للعالم عموماً .

ان فهم الصحراء والتأقلم معها بصداقة حميمية لا ينطوي بداهة على أن يكرر المرء في العمارة الصحراوية سماتها البيئية . بدلاً من ذلك فإن أفنية العمارة الاسلامية وداخلها تمثل إتماماً للبوادي . انها ، مثل الواحات المصطنعة اماكن محمية متميزة بالازرق والاخضر وهما لونا الماء والزرع ، وبالابيض الذي هو لون الفناء والنور على العكس من الاصفر الذي هو لون الشمس الملهبة . وعلى هذا فان التخيل الاسلامي للجنّة هو انها فردوس مسوّر يتضمن أربعة أنهار ترمز الى الاتجاهات الاساسية في نفس الوقت الذي تعكس فيه صورة السماء لتوحّد بين الأعلى والأسفل .

ان وصفي للعمارة الاسلامية يتضمن العناصر الأساسية للغة العمارة : أي التركيب البنيوي للمكان (الطوبوغرافيا topography) . ينطبق التركيب البنيوي على فعاليات الانسان في الفضاء . أي فيما يتعلق بتوجهاته الحركية ـ orientation . ان الفضاء في الاسلام أمر غير متناهي بدلاً من كونه اتجاهي الهدف . برغم ان توجهاته هي نحو الكعبة . على هذا فان العمارة الاسلامية متحررة نسبياً من التضمينات الالتزامية المحلية بينما يكون الفضاء الاوروبي متجلياً كمكان معين . أما التكون الشكلي فيتعلق بتطبع الانسان ببعض السمات البيئية المعينة المجسدة في الاشكال المقامة . غير ان العمارة الاسلامية ، وفق الرفض الاسلامي للتجسيد ، لا تمارس مفهوم التضمين الجسدي ـ embodiment . وقد فضلّتُ استعمال لفظة « التجريد المادي » ـ dematerialisation في التعبير عن ذلك . مع ذلك فان انعدامية التضمين الجسدي في العمارة الاسلامية لا يعني اختفاء الاشياء . ان الاشياء موجودة في الدين الاسلامي بالتأكيد ، ولكن بوسمها بكينونة غير مادية . اننا نلمس في العمارة الاوروبية استعمالها أغلب العناصر التشكلية ، أما تفسيراتها فتكون مختلفة من خلال المعالجات الخاصة للحدود المكانية .

بقيت الرمزيات وهي التي تخص المقومات المكونة والمتميزة من العمارة مثل القبة والمكعب والفناء والعمود والقوس . في هذه الحالة أيضاً تمنحنا العمارة الاسلامية عالماً مفهوماً مفسراً في ضوء المفهوم العام للوحدانية . وعليه فان العناصر المعمارية لا تكون معروفة بصفة موجودات منفردة ، بل على اساس انها انعكاسات موقتة عن القدسية .

ان التركيبات البنيوية للمكان والتكوينات الشكلية والرمزيات هي التي تؤلف اللغة المعمارية ، وهي لغة تمتلك ، في الحالة الخاصة بالاسلام ، تماسكاً وعمومية لا تباريان .

بهذا نصل الى التساؤل الاخير : هل يمكن خلق عمارة اسلامية

اليوم ؟ وهل يكون ذلك مجدياً ؟ ما دامت العمارة الاسلامية بالاساس ظاهرة ذات مفهوم ديني يخص العالم ، فان من الواضح انها تستند الى قوة اسسها الروحية وتكاملها . أما زماننا الحالي ، كما يعرف الجميع ، فغير محاب جداً للابعاد الروحية ، ويستهدف على العموم اخضاع كل شيء الى ما يكون قابلاً للقياس . وعلى هذا فان الاسلام هو ، بالتاكيد ، في حالة خطر . غير انه من ناحية اخرى يمكن أن يساعد على توليد حركة تجديدية للقيم الروحية ، لان الحاجة لمثل هذا التجديد باتت على العموم محسوسة . ان العمارة الاسلامية ، بسبب سماتها الأزلية والعامة ، قد بقيت طوال قرون حياتها وفي تباين الامكنة وتحت مختلف الظروف المتبدلة ساعية تنبض بالحياة . كما انها بقيت منفتحة تجاه التكيف وفق الظروف . انها ، ومن غير أن تتخلى عن مميزاتها العربية الاساسية ، لقادرة على الاتسام بالصفات المحلية الخاصة كالفارسية والمصرية والمغربية والهندية والتركية مما يحدو بي الى الاعتقاد بعدم وجود سبب لان لا تكون العمارة الاسلامية عمارة معاصرة .

ولغرض تجسيد هذا الموقف ، لا بد لي من ذكر شيء عن أهداف ووسائل العمارة الحديثة . لقد طورت العمارة الحديثة ، بصفتها تعبيراً عن العالم المعاصر الديناميكي ، مفهوم الخطة الطليقة ـ free plan . وتبعاً لمرامي الفن الحديث ، فانها مالت الى التخلص من أية مضامين أدبية . وعلى هذا كانت النتيجة في أن أمست العمارة الحديثة مطلقة التجريد أو غير رمزية ، وقد جعلها ذلك مناقضة للقيم التقليدية للعمارة الاوروبية . وفي هذا الصدد كان واضحاً أن العمارة الحديثة قد اقتربت مما يسمى بـ « التجريدية ـ abstraction » في العمارة الاسلامية . مع ذلك ما زالت هنالك أيضاً اختلافات اساسية . فالعمارة الحديثة لم تكن لتستند الى أية اسس روحية ، بل بالاحرى تبنّت الامكانيات التي وفرتها التكنولوجيا الحديثة كنقطة لها للانطلاق . وعليه فان العمارة الحديثة في هذا الصدد تمثل استمرارية للتقاليد الانشائية الاوروبية . بمرور الاماد الطويلة ، وعندما انمحت كل ذكريات الماضي ، أدت المعالجات اللاشكلية الى فراغ أو الى نزوات اعتباطية .

ان بعض الابنية الحديثة لا تربط التعبير عن الوحدة الاسلامية بقضايا البناء التقليدية لان الوحدة مفهوم كوني لا زمني . وعليه فقد تتجلى الوحدة مرة واخرى في أي ظرف اذا ما عرفنا تضميناتها المعمارية . ان مفهوم الوحدة في العمارة الاسلامية متوفر للعمل الواقعي . وعليه فان أية بناية اسلامية يمكن أن تكون شاخصاً يافعاً في اسمى معاني الكلمة . وحين تكون العمارة الاسلامية شواخص يافعة فانها توجد المعنى لطبيعة العمارة عموماً . وبالتالي فانها تخترق في أهميتها حدود ما بعد البيئة التي ولد فيها الاسلام . كما ستقدم بذلك مساهمة اساسية لمفاهيمنا عن لغة العمارة ، ومن ثم زيادة في الثقافة المعمارية المعاصرة .

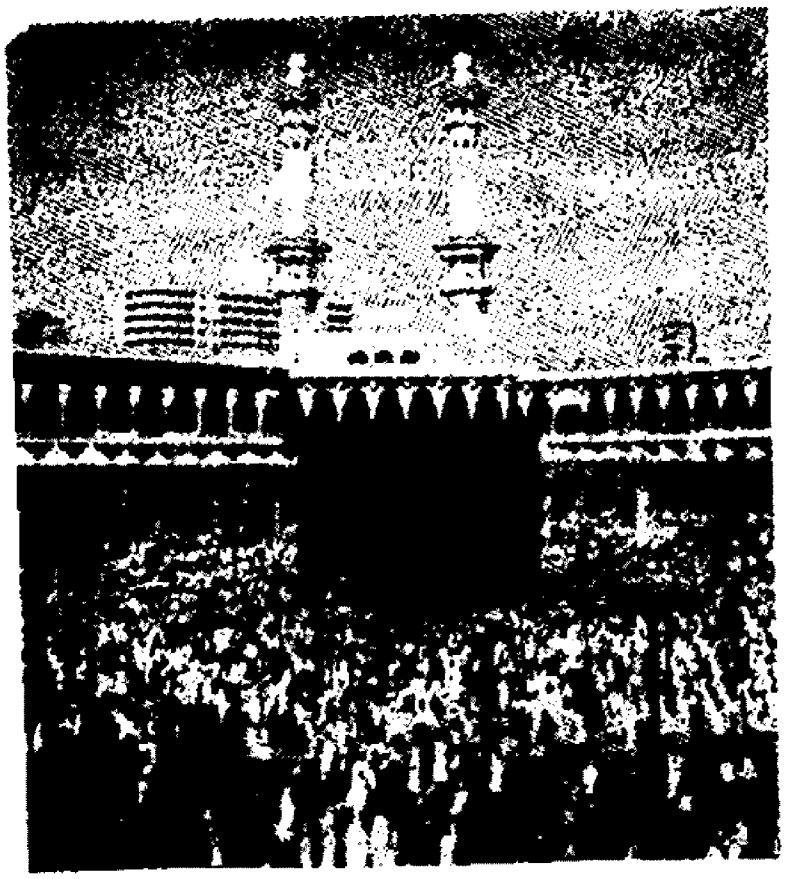

الكعبة المشرفة ـ قبلة المسلمين

انننا اليوم نشهد ردة فعل ضد الحداثة التجريدية . فبدلا من أن تواصل حركة « ما بعد الحداثة » القائمة حالياً خطى الاساليب العالمية ، فانها تجنح الى التعبير عن تعقيدات العالم المعاصر . وعليه فان عمارة التعددية architecture of pluralism أخذت بالظهور الى الوجود ممتلة كلًا من الجديد والقديم بهدف خلق بينات ذات ملامح مختلفة . وفي رأيي فان هذا يجب أن يجري من غير أن نفقد المفهوم الأساسي في الانفتاح . في كل الاحوال ، وكنتيجة لذلك نشهد اليوم تباينات عظمى في الاشكال المعمارية حتى أمست مسالة المعنى أكثر أهمية من الحاجة الى الصدق الانشائي .

مقابل هذه الخلفية يبدو لنا ان عمارة اسلامية حديثة أو بالاحرى ما بعد الحداثة في العمارة الاسلامية قضية ممكنة أو حتى ضرورية . ان الاسلام هو احدى الطاقات الحضارية الجبارة للعالم الحاضر ، والتي لا بد لها من أن تجد ظواهر معمارية معاصرة هي في حقيقتها ترجمة جديدة للقيم الاسلامية التقليدية .

ان عمارة اسلامية جديدة لا يمكن ان تتطور إلا اذا عرفنا ماهية العمارة الاسلامية في مصداقيتها . ان الكثير من المنشآت المقامة في الاقطار الاسلامية اليوم تنم عن قصور في مثل هذا الفهم ، لانها لا تعرض إلا مجرد أبنية عشوائية عن أفكار اسلامية . من حسن الحظ لا ينكر أن هنالك بعض الاستثناءات الايجابية المهمة .

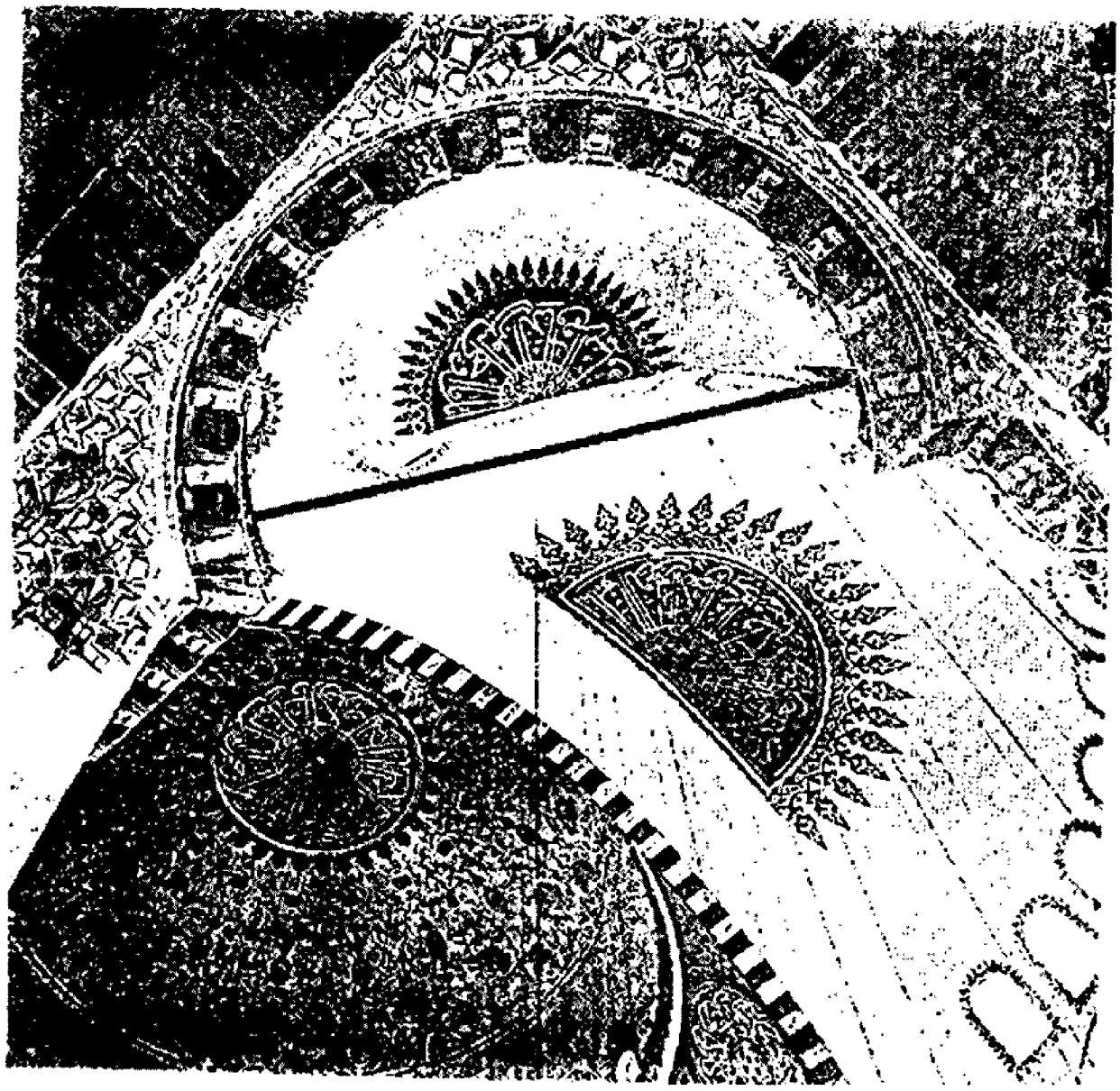

المقرنصات والخط العربي
جامع سليمان ـ اسطنبول

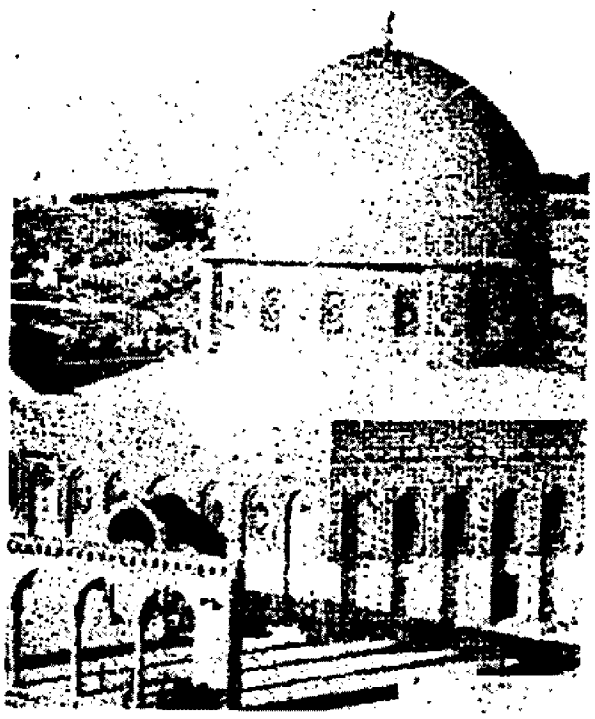

مسجد قبة الصخرة
في القدس
قبة فوق هيكل مثمن

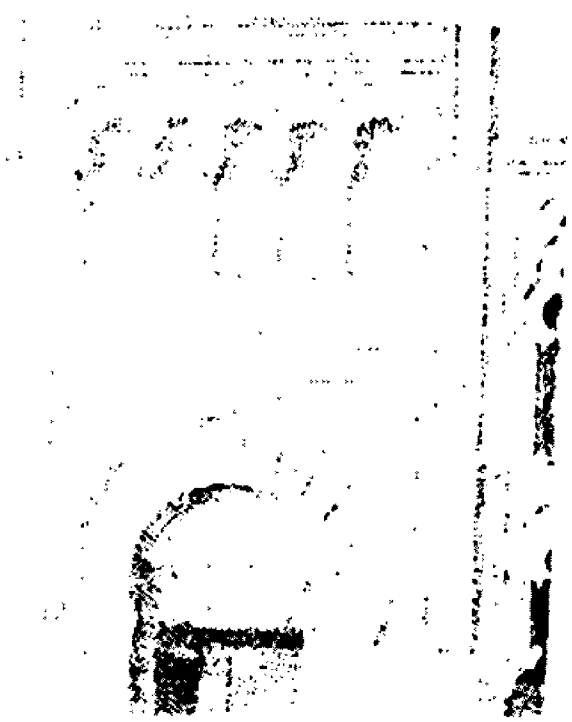

باب الغفران
في جامع قرطبة
الكبير وقوسها
الحدوي